ملف ١

تأملاتٌ شخصية
إدوارد سعيد والشّتات الفلسطيني

غادة كرمي

عقب وفاة إدوارد سعيد في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ مباشرةً، أذكر أنني كنت أتساءل إذا ما كان الإسرائيليون ومناصروهم يحتفلون بغياب أحد أهمّ خصومهم، الذي فاق غيره في نجاحه وفصاحة لسانه وتأثيره، وذلك في الوقت الذي كنّا فيه نحن الفلسطينيين ننعى وفاته. لا تخشى المؤسسة السياسية الإسرائيلية، في واقع حالها، من المقاومة العسكرية الفلسطينية أو «الإرهاب» الفلسطيني، أو التهديدات التي يشكّلها المناضلون الفلسطينيون، على الرغم من التصريحات المتكاثرة التي ما فتئت تُطْلِقها وتقول فيها إن المقاومة الفلسطينية هي المشكلة الرئيسية التي تواجهها إسرائيل.

إن المعركة التي لا تتحمّل إسرائيل خسارتها والهزيمة فيها هي معركة القلوب والعقول، وسباق الانتخابات العامة التي طالما فازت فيها بيسرٍ وسهولةٍ في ضوء معارضة السكان العرب التي تتّسم بضعفها وانعدام تأثيرها. لقد عمل إدوارد سعيد بالفعل على مدى ثلاثة عقودٍ، على قلْب هذا المفهوم في أهم ساحةٍ تملكها إسرائيل

غادة كرمي، كاتبة وأكاديمية فلسطينية تقيم في بريطانيا.

ومؤيّدوها، وهي الولايات المتحدة والغرب. وقد تفوّق سعيد في نجاعته وتأثيره في خضمّ الصراع الذي خاضه ضد الصهيونية على عشرات الجيوش وعلى أسطولٍ من طائرات (F16).

ويستدعي الدور الذي اضّطلع به سعيد إلى الذاكرة ما صرّح به أحد رؤساء وزراء إسرائيل السابقين في سياقٍ مختلفٍ اختلافًا كليًا. فبعد أن تسبّبت مجزرة دير ياسين التي اقترفها الصهاينة في شهر نيسان/أبريل ١٩٤٨ في ترويع آلاف المواطنين الفلسطينيين (بمن فيهم أُسرتي أنا) ودفعت بهم إلى ترك منازلهم وديارهم، قال مناحيم بيغين، قائد هذه العملية، إن المجزرة كانت تساوي ستّ سرايا في الحرب ضد العرب الفلسطينيين.

كان جُلّ المعجبين بإدوارد سعيد – من الباحثين والأدباء والموسيقيّين والمؤرِّخين والمحلِّلين والنشطاء السياسيّين – ينحدرون في أصولهم من الغرب ولم يكونوا عربًا في حياته. ويمكن للمرء إدراك هذه الحقيقة وفهمها لأن الغرب كان هو البيئة التي نشأ سعيد وترعرع فيها منذ سنّ المراهقة، فقد كان يؤلِّف باللغة الإنجليزية، وجعلته الإنجازات التي حقّقها في مختلف ميادين الفكر الأوروبي أحد المفسِّرين الذين أضفوا قيمةً فريدةً على العديد من حقول المعرفة في الغرب.

وبالفعل، يستطيع المرء القول بأن إدوارد سعيد، شأنه شأن جميع المفكرين، ينتمي إلى الأسرة الإنسانية بمجموعها. غير أن تقديم إدوارد سعيد بهذه الطريقة يُفضي إلى إساءة فهم السياق الفلسطيني الذي وفّر الدافع له للعمل والإبداع ونَبَع منه إلهامه ونبوغه. وفي هذا المعنى، فإن أبناء الشعب الفلسطيني هم من ينبغي أن ينسبوه إلى أنفسهم قبل غيرهم باعتباره أحد أهم مقاتليهم الذي بَزَّ أقرانه في حدّة ذهنه وذكائه وولائه وانتمائه، وباعتباره الجسر الثقافي الأهمّ الذي أوصل قضيتهم وبَسَطها وبيّنها للوعي الغربي. كما أن التقليل من أهمية فلسطين باعتبارها مصدر الإلهام والقوة المحركة التي أمدّت موهبته وأوقدت حسّه لن يُؤتي سوى فهمٍ مجتزأٍ لأعماله ويقلّص فهْمنا لأهميته.

السياق الفلسطيني

امتدّت صداقتي مع إدوارد سعيد على مدى سبعٍ وعشرين سنة، اهتديْتُ خلالها إلى الإلهام وسبرتُ فيها أغوار شخصيته. وقد وُلِدنا نحن الاثنين في القدس ونشأنا وترعرعنا في المنفى، حيث أقام هو في البيئة الغربية الغنية التي كانت القاهرة الواقعة تحت نير الاستعمار تزخر بها ثم في أمريكا فيما بعد، ونشأْت أنا في إنجلترا. وبالنسبة لكلينا، تولدت اليقظة السياسية لدينا مع الهزيمة التي لحقت بالعرب في الحرب العربية–الإسرائيلية في العام ١٩٦٧، والتي أفضت بنا إلى ولوج مسارٍ من المشاركة الدؤوبة في السياسة المرتبطة بفلسطين. وعندما صادق سعيد على مذكرات «البحث عن فاطمة» في العام ٢٠٠١، كنت أعتقد أنه كان يرى في قصتي ذات المعنى من اللا–انتماء والسلب الذي كان يحسّ به.

التقيت مع سعيد للمرة الأولى في ليبيا في العام ١٩٧٦، إذ لم يكن حينذاك قد اكتسب هذه الشهرة الواسعة بعدُ، حيث كنّا ضيوفًا في مؤتمر حول الصهيونية والعنصرية عُقد تحت رعاية العقيد معمر القذافي. وتقابلنا مرةً أخرى في نيويورك عند نشر عمله الأدبي البارز «الاستشراق» في العام ١٩٧٨. وبالنظر إلى أنه كان ينحدر من حقلٍ معرفيٍّ يختلف اختلافًا أصيلاً عن حقلي، فلم أُوفِ هذا الكتاب حقّه ولم أقدّر أهميته حق التقدير في بادئ الأمر.

ولكن كانت عاصفة الجدل التي أثارها هذا الكتاب لافتةً للنظر، ومدهشةً بالنسبة للكثير منّا. فدون أن نقرأ هذا الكتاب، تصدّينا لمناصرة مؤلِّفه ومساندته على أبسط المستويات: فقد كان يهاجم الغرب ذا النزعة المهيمِنة بسبب سيطرته على العرب والشرق. وكان هذا الأمر يبدو سببًا وجيهًا بحدّ ذاته. وعندما قرأت الكتاب في نهاية المطاف، بدأت أفهم أهميته الحقيقية، ولا سيما بالنسبة للفلسطينيين.

وعلى غرار جميع الأفكار العظيمة، فقد بدت الفكرة الجوهرية التي جاء بها كتاب «الاستشراق» بسيطةً ومعروفةً للوهلة الأولى، كما لو كنّا نعرفها قبل ذلك بردحٍ طويلٍ من الزمن، إذ أثارت تعريته لتراث البحث الأبويّ والكولونياليّ الذي انتهجه الغرب تجاه الشرق العداوة والإعجاب على حدٍّ سواء.

ولكن كتاب سعيد، كان يملك، في نظر العرب، سِمةً أصيلةً لم تكن تحتاج إلى الأسس الفكرية التي أقامها لتأييد فرضيّته لأنها كانت تتقاطع في صداها مع وعيهم الجمعيّ بتشويه سمعتهم والتقليل من شأنهم على يد الغرب. وبالنسبة للفلسطينيين، كان الإنجاز الحقيقيّ الذي حقّقه إدوارد سعيد يتمثّل في تحديد ما أسمّيه إرادة السلب التي تقع في قلب تراث البحث الاستشراقي.

فقد عمل الكُتّاب الذي وصفوا شعوب الشرق على سلبهم، وليس ذلك من خلال طردهم بصورةٍ حسيةٍ مادية، كما حصل في فلسطين، وإنما من خلال المعرفة المنمّقة والدقيقة. وبالنسبة لأبناء شعبٍ أُعيد تشكيله من خلال منظور فكرٍ غريب ومتأثرٍ بأفكارٍ غريبةٍ حول التفوّق، فقد سُرِق منهم تاريخهم الحقيقيّ وهويتهم الحقيقية. وهذه السرقة الفكرية هي نوعٌ من السلب.

لم تكن هذه الأفكار تتّصل بعصرٍ آخر. بل هي، كما أكّد سعيد، معنا اليوم، وهي تتغلغل في المواقف والخطاب العدوانيّين اللذين تتبنّاهما أمريكا والغرب حاليًا تجاه العرب والإسلام. وفي هذا المعنى، نستطيع أن نرى أن الكثير من كتاباته تجد موقعها المناسب في هذا الوعي بالسّلب الذي يعود إلى أصوله الفلسطينية.

إن فهم الأهمية التي يتصدّرها إدوارد سعيد على نحوٍ تامٍّ يكمن في فهم تاريخ فلسطين الحديث. فقد كان البلد الذي أبصر فيه النور في العام ١٩٣٥ واقعًا تحت حكم الإدارة الكولونيالية البريطانية، بموجب الانتداب الذي منحته عصبة الأمم منذ العام ١٩٢٢. وكانت الأفكار الكولونيالية تطغى على البيئة التي أمضى فيها طفولته، كما كان المشروع الصهيوني، الذي بدأ بالتوسّع تحت رعاية البريطانيين وحمايتهم في ذلك الوقت، كولونياليًا كذلك. وعلى الرغم من أن أسرة سعيد كانت تنعم بالثراء وكان والده رجل أعمال مسيحيا ميسور الحال ووفّر لابنه تعليمًا على الطراز الغربي في مدارس رسومها مرتفعة، فلا مفرَّ أن كانت المحدِّدات العامة التي وَسَمت وجوده العربي كولونياليةً.

لقد هيمنت هذه المؤثرات على نشأة إدوارد سعيد وتربيته. وبعدما غادرت عائلته

القدس في العام ١٩٤٧، توجهت إلى القاهرة التي تلقّى فيها سعيد تعليمًا إنجليزيًّا خاصًّا. وكانت بيئة منزله تصطبغ بالإعجاب بالثقافة والموسيقى والأوبرا والأدب الغربي، وفوق كل ذلك، باللغة الإنجليزية.

وقد أشار سعيد إلى أن هذا النحو من تقدير الأشياء الغربية أحدث شرخًا في فهمه للهوية خلال مرحلة مراهقته، وهو فهمٌ لم ينفكّ عنه أبدًا. ففي مقابلة مع إيمري سالوزينسكي (Imre Salusinszky)، قال سعيد: «إن خلفيّتي تتألّف من مسلسلٍ من التشريد والاغتراب الذي لا يمكن التعافي منه. وقد كان الشعور بالوجود بين الثقافات قويًّا جدًّا، جدًّا، بالنسبة لي. أودّ القول إن هذا هو الخيط الوحيد الأقوى الذي لم يفارقني طوال حياتي، وهو أنني دائمًا ما أكون داخل الأشياء وخارجها، ولم أكن في الحقيقة جزءًا من أيّ شيءٍ بعينه لفترةٍ طويلة.»[1]

وقد أدى إنشاء دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨ إلى طرد ثلاثة أرباع مليون مواطنٍ فلسطينيٍّ وهروبهم القسري من فلسطين. واقترن هذا الطرد الحسي مع السلب الروحي الذي عاشه إدوارد سعيد، بحيث بات الموضوع الأساس الذي يَسِم نظرته إلى العالم. وكان حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم الذي طُرِدوا منه محورًا مركزيًا في أعماله. فقد كان يعود دائمًا إلى العناصر الجوهرية التي تذكي الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وهي عناصر تمثّلت في طرد الفلسطينيين وتهرُّب إسرائيل من مسؤوليتها تجاه النكبة التي أوقعتها بهم.

ومنذ الأيام الأولى من إقامة دولة إسرائيل، أخذ هذا التهرّب مسارًا من الإنكار الذي اتّسم بالهوس. للإبقاء على البراءة التي اختلقتها، شرعت إسرائيل في طمْس جميع آثار الوجود الفلسطينيّ على الأرض، حيث هدمت ما يربو على خمسمائة قريةٍ فلسطينيةٍ وأقامت مكانها مستوطناتٍ جديدة. كما أن تاريخ «إسرائيل» الذي يتعلّمه الأطفال الإسرائيليون في المدارس هو تاريخٌ مشوَّهٌ على نحوٍ يُقصي وجود العرب ويستثنيه.

وتُظهر الخرافة المحبوكة التي تسرد أصول إسرائيل أن وجود اليهود في فلسطين

امتدّ من العهود التوراتية حتى الوقت الحاضر، وهو لم ينقطع إلا خلال مراحل من الاستيطان العابر في عهود الرومان والعثمانيين والبريطانيين. وإن لم تكن تعرف خلاف هذا السرد، فمن الممكن حينئذٍ أن تعتقد بأن أيًا من العرب لم يوجد على الإطلاق في هذه البلاد، اللّهم إلا من قلةٍ من القبائل البدوية الرُّحَّل. لقد سعى الإسرائيليون، من خلال توظيف هذه المنهجيات، إلى القضاء على شعبٍ بأكمله وإعدام وجوده، بما يشمله ذلك من تاريخهم وذاكرتهم ولغتهم وثقافتهم.

يشعر جميع الفلسطينيين بهذه الإهانة من السلب المزدوج لأجسادهم وأرواحهم والإحجام عن الاعتراف بتاريخهم باعتبارهم شعبًا مستقلاً أو بالمعاناة التي تكبّدوها نتيجة هذا السلب. وقد أحسّ إدوارد سعيد بهذا السلب من صميم قلبه، حيث تعكس الكثير من كتاباته هذا الإحساس بدرجاتٍ متفاوتة. إن العثور على رابطٍ موضوعيٍّ في مجموع مؤلفاته، التي يبدو اليأس سمةً ظاهرةً عليها، أمر صعب، لأنه كان يكتب في تشكيلةٍ واسعةٍ من المواضيع، التي تراوحت من تاريخ الفكر إلى الشؤون الجارية.

ويتساءل عبد الرحمن حسين، في السيرة الذاتية الفكرية التي كتبها عن إدوارد سعيد، عما إذا كان من الممكن، بالنظر إلى نطاق كتاباته المتنوّع، الخروج بخيطٍ عامٍّ مشتركٍ يجمع بينها.[٢] ومع ذلك، يبدو أن موضوعيّ المنفى والسلب يشكّلان جانبين محوريّين استغرقا فكره واستحوذا عليه، وهما الموضوعان اللذان عبّر عنهما بصورةٍ رئيسة في كتاباته السياسية وفي أهمّ عملٍ من أعماله، وهو كتاب «الاستشراق».

لقد كان سعيد يتحلّى بميزةٍ مكّنته من التوفيق بين المبادئ والمعتقدات المتعارضة، وهي قدرةٌ غيرُ عاديةٍ على تخطّي الحدود الفكرية طرق مواضيع يبدو أنها غير مترابطةٍ مع بعضها البعض، ومن ثّم الانتقال منها إلى غيرها – النقد الأدبي، السياسة، الثقافة، التاريخ، الميثولوجيا – على نحوٍ سلسٍ لم يكلِّفه كثير عناءٍ أو جهد.

تعكس هذه المقدرة الفذّة على الولوج إلى «المنطقة المتوسطة» تجربة المنفى، حيث يعتمد البقاء في حالاتٍ كثيرةٍ على القدرة على دمج هوية المرء وسلوكه أو تكييفهما مع بيئةٍ قد تُظهِر عداءَها لثقافته وتجربته الأصيلتين. وقد فرضت تجربة المراهقة، التي

عاشها سعيد في الولايات المتحدة وكتب عنها في مذكراته «خارج المكان» عليه هذا الوضع بعينه، حيث تعلم فيه أن يتعامل مع مساحةٍ كبيرةٍ من النشاط الفكري والعاطفي. ومع ذلك، تركت فترة المراهقة أثرها على سعيد وسلّمته إلى الإحساس الدائم بالعيش «بين الثقافات». وقد ربط عددٌ من المعلقين قدرة سعيد على تخطّي الحدود الفكرية بتجربة المنفى التي مرّ بها.[٣]

قد يتساءل المرء عن السبب الذي يجعل رجلاً لم يشهد أحداث النكبة بأمّ عينيه (وهي التي أفضت إلى الخروج الجمعي للفلسطينيين من وطنهم في العام ١٩٤٨) يتأثر تأثرًا عميقًا بتبعاتها وتداعياتها، ليس بالمعنى الفكري أو السياسي فحسب، وإنما بقدرٍ كبيرٍ من التقمّص العاطفي والهمّ الشخصي. وقد أقرّ سعيد نفسه بأنه لم يشهد المرارة التي نجمت عن التشريد والحياة في مخيمات اللاجئين، وبأنه كان بالفعل محظوظًا لذلك.

ولكن هذا الحدث وما تلاه خلّف أعمق الأثر عليه ودفع به، في رأيي، إلى إخراج أهمّ مؤلفاته التي تميزت بشفافيتها وجلائها وعاطفتها المتوقّدة وقدرتها الباهرة على الإقناع. «الحياة الفلسطينية مبعثرة وغير مترابطة وتتسم بالترتيبات المصطنعة المفروضة على الحيز المتوقف أو المقيَّد، وبالاضطرابات والإيقاعات اللامتزامنة في زمنٍ مضطرب.»[٤]

لقد دفعه الإنكار الصهيوني للحياة والتاريخ الفلسطيني إلى قلب هذا الإنكار وكسر الصمت المصطنع الذي فرضته الصهيونية وتواطأ معها العالم الغربي في فرضه. «بما أن تاريخنا محظور، فالروايات ضئيلة. وقصة الأصول والوطن والشعب مخفيّة. وعندما تظهر، فهي تظهر مجتزأة، وغالبًا ما تكون متقلّبة وملتوية إلى أبعد الحدود ومقننة في جميع الأحوال – الملاحم الوهمية، قصائد الهجاء، الأمثال الساخرة، الطقوس العبثية – والتي لا تعني الكثير في نظر الغريب.»[٥]

استحوذت هذه المشكلة المزدوجة، التي تمثلت في حرمان شعبه من أساسيات الوجود الطبيعي – الوطن، الجذور، الاستمرارية الاجتماعية – والاعتداء الشرس والفعال على هذه الأساسيات، باعتبارها حقائق تاريخية، من قبل الصهاينة

ومناصريهم، على سعيد على مدى ردح طويل من حياته. ولذلك، كان من المحتّم أن يتمثل الدور الأبرز الذي اضطلع به في الحياة الفلسطينية في أن يكون الناطق الرسمي وممثل الشتات الذي كان يشكل دائرته الطبيعية. «وراء كل فلسطيني هناك حقيقةٌ عامةٌ عظيمة، هي أنه عاش مرةً – حتى وقتٍ قريب – شعبٌ على أرضه التي كانت تُسمّى فلسطين، والتي لم تَعُد وطنه بعد ذلك. وليس من الضرورة وجود ظلال فَرقية بالنسبة للفلسطيني لكي يخرج بهذا البيان.»[٦]

الصهيونية والسلب

لا يشبه سلب الفلسطينيين، في معنىً من المعاني، أيّ سلبٍ آخر. ففي في هذه الحالة، يدّعي القائم بفعل السلب حقًّا أخلاقيًّا يلغي حق الشعب المسلوب في أرضه. ويكمن الأمر الجلل في أن هذه الفكرة تعتبر مترسخةً في الخيال الغربي. وكان سعيد يؤْمن بأن المفكرين الذين انخرطوا في الإنشاء حول الاستشراق والإمبريالية والفلسفة السياسية الصهيونية ساعدوا على خلق المذهب الذي يقول بأن أشياء من قبيل الهويات الوطنية أو العرقية أو الثقافية أو الدينية الخالصة موجودةٌ بالفعل، وبأن هذه الهويات قد تكون أنبل من الهويات الأخرى، بل وتفوقها.

ففي كتاب «الاستشراق» يركّز سعيد على التفسير الاستشراقي للهوية التي تسيء تمثيل شعوب العالم الثالث وتُشتَقّ من نظرة فوقية للعالم وتصنفه إلى «هم» و»نحن». ونستطيع أن نرى في هذا الفعل موازاةً جاهزةً للتفسير الصهيوني لشعبٍ يهوديٍّ خاصّ مُوكَّل برسالةٍ ساميةٍ تنزع حقوق شعبٍ يقلّ درجةً عنه، وهو الشعب الفلسطيني، الذين يمثَّل على أنه غائب أو بلا قيمة وناقص.

ومن المثير للاهتمام أن جوناثان رابان (Jonathan Raban) يستشهد، في هذا المقام، بسعيد في مقالٍ حديثٍ كتبه حول أهوال الاحتلال الأمريكي للعراق، حيث يُبدي ملاحظته حول الطريقة التي جرى فيها «شرقنة» الشعب العراقي – نزع صفتهم الإنسانية وسلبهم «خصوصيتهم التي لا يضارعهم فيها أحد». ويتساءل رابان حول ما إذا كان الأمريكيون الذين سبّبوا الويلات والعذابات للعراق يضعون نسخةً من

كتاب إدوارد سعيد بجانب أَسرَّتهم للتنقيب عن أفكار فيه.[٧]

وكان ما استرعى انتباه سعيد أن أيديولوجيةً كولونياليةً وتمييزية وفوقية، وهي الصهيونية، كانت قادرةً على تقديم نفسها على أنها مشروع اشتراكي ديموقراطي يحضّ على المساواة. فما الذي أكّد على صدقية هذه الصورة التي أُسيء طرحها والإنجازات التي أفرزتها؟ يؤكد سعيد على أنه لا يمكن للمرء أن يفهم هذا التشويه خارج سياق الإمبريالية الأوروبية والخطاب الاستشراقي:

ينبغي دراسة الأفكار السياسية الفعالة من ناحيةٍ تاريخيةٍ من وجهين: (١) من ناحية أصولها بغية إثبات مصدرها وقرابتها ونسبها وتلاقيها مع أفكار أخرى ومع مؤسسات سياسية أخرى، (٢) وباعتبارها أنظمةً عمليةً لمراكمة القوة (الأرض، الشرعية الأيديولوجية) والإحلال (الشعب، الأفكار الأخرى، الشرعية السابقة). ولكن الوقائع السياسية والثقافية الحالية تجعل مثل هذه الدراسة أمرًا صعبًا على نحوٍ استثنائيّ. فبقدر ما اكتسبت الصهيونية لنفسها في الغرب الذي نهض بعد الثورة الصناعية هيمنةً قلّما وجدت معارضةً في خطاب «المؤسسة» الليبرالية. فقد تمسّكت الصهيونية بإحدى خصائصها الأيديولوجية المركزية التي قامت على إخفاء، أو تسبّبت في إخفاء، الخلفية التاريخية الواقعية التي ارتكزت عليها في نموها وفي التكلفة السياسية التي دفعها سكان فلسطين الأصليون، وفي تمييزها الجائر الذي يتّسم بطابع عسكري بين اليهود وغير اليهود.[٨]

وبذلك، أقحمت الصهيونية نفسها في الخطاب الغربي السائد الذي كان ينظر إلى العرب بوصفهم «سكانًا أصليين» ذوي قيمةٍ أدنى، وعلى أنهم «الطوائف غير اليهودية» الذين شملهم وعد بلفور، بحيث ينبغي أن يحدد الآخرون مصيرهم ووضع احتياجاتهم في مرتبة أدنى من احتياجات عرقٍ يفوقهم.

ولم يكن لمشروعٍ من قبيل الاستعمار الصهيوني لفلسطين أن يتم لولا هذا الخطاب الذي ارتكز على القوة والتفرّد ونَبَع من فلسفةٍ أوروبيةٍ استشراقية. ولذلك، كان يُفترض بأن تكون أوروبا، بثقافتها وحضارتها العظمى، المركز الأخلاقيّ والسياسيّ والجماليّ للعالم، أما بقية بني البشر، «السكان الأصليون»، فهم في مرتبةٍ أدنى.

وكانت فكرة الإمبراطورية، التي تنشئ المستعمرات للأوروبيين في بلادٍ بعيدةٍ كلّ البعد عنهم، ودونما اعتبار لرغبات الشعوب الخاضعة للاستعمار في هذا الأمر، متوطِّدةً في الوقت الذي برزت فيه الصهيونية على الساحة. ولذلك، اعتبر سعيد أن المشروع الكولونيالي الاستعماري جزء لا يتجزأ من بنية المواقف السائدة، ونظر إلى الاستشراق باعتباره مكوِّنًا أساسيًا من مكوناتها.

وعند تحديد مصير «السكان الأصليين» في فلسطين، كان المسؤولون الكولونياليون من أمثال آرثر بلفور (Arthur Balfour) على توافقٍ تامٍّ مع القيادة الصهيونية. ولذلك، كانت الصهيونية الحديثة متحالفةً منذ البداية مع أكثر الأشكال تطرفًا من التفرد والفوقية الأوروبية. وقد مكّنت هذه النظرة المشتركة الطرفين من إقامة دولةٍ يهوديةٍ في بلدٍ آخر وعلى حساب سكانها الأصليين في وضح النهار، إذا جاز التعبير، وبمعرفةٍ تامةٍ من نصرائها البريطانيين الذين آمنوا بأن فلسطين كانت في الأصل وطنًا لشعبٍ موجود. ومن المستحيل أن نشكّك في أن الصهاينة أو الإدارة الكولونيالية البريطانية في فلسطين لم يسعوا دائمًا إلى «إعادة تأسيس فلسطين بصورة كلية» كدولةٍ يهوديةٍ ليس فيها متّسع لغير اليهود.

استقت إسرائيل سياسةً اجتماعيةً من الأطروحة الصهيونية التي تقول بأن استعمار فلسطين وتشريد الفلسطينيين كان يمكن إنجازه لمصلحة اليهود وعلى أيديهم هم في ذات الوقت. فكما أشار إدوارد سعيد، سعت الصهيونية في بادئ الأمر إلى تقليص وجود السكان الأصليين ، ثم إلى إقصائهم وإخضاعهم في نهاية المطاف، كوسيلةٍ تكفل لإسرائيل أن لا تكون مجرّد دولةٍ لمواطنيها (الذين شملوا العرب بطبيعة الحال)، وإنما دولة لـ«عموم أبناء الشعب اليهودي».

وقد أنشأ الصهاينة نوعًا من السيادة على الأرض وسكانها على نحوٍ لم تكن دولةٌ أخرى امتلكته أو تمتلكه. ومنذ ذلك الحين، لم يزل العرب الفلسطينيون يحاولون مقاومة هذه المعضلة وإيجاد بديلٍ لها. ولهذه الأسباب جميعًا، كان سعيد منشغلاً بمسألة إسرائيل:

كيف امتلكت القدرة على تشريد الوجود الفلسطيني والقضاء عليه، في ذات

الوقت الذي لم ينفك فيه الفلسطينيون يقاومون هذا القَدَر الذي فُرض على رقابهم أو يُعِدّون الاستراتيجيات المضادة الكفيلة بمواجهتها. وكان حلّ الدولة الواحدة أحد هذه الاستراتيجيات التي انبرى سعيد للدعوة إليه في سنواته الأخيرة.

وبالطبع، فلم يقلّل سعيد من جسامة المهمة التي تواجه الفلسطينيين. فقد فُرض على هذا الشعب، الذي كان معظم أفراده يعملون في الزراعة ولا يملكون حظًا وافرًا من التعليم ولم يكن لهم سوى طموحاتٍ سياسيةٍ متواضعة، العيش بجوار عدوٍّ قاهر، هم اليهود الأوروبيون الذين كانوا يتحالفون مع الإمبريالية الأوروبية والذين كانوا مُشَرَّبين «بلهفة تقرير مصير اليهود من الناحيتين السياسية والدينية... لكي يمارسوه على أرض الميعاد.»[٩] ومن البداية، كان الصراع غير متكافئٍ بصورة لافتة، وبالنظر إلى النجاح الهائل الذي حقّقه المشروع الصهيونيّ على المسرح الدوليّ، فما يزال الصراع يفتقر للتكافؤ بين الطرفين.

ومع ذلك، لم يفتأ سعيد يصرّح بأن هذا المشروع، الذي يعتبره الفلسطينيون كارثةً عامة، قد وضعهم في ذات الوقت على الخارطة السياسية. فمن كان سيسمع عنهم لو كان من غزوا أرضهم من التشاديين أو الأوكرانيين؟[١٠] إن السبب الأصيل الذي مكّن الفلسطينيين من اكتساب أهميةٍ غير اعتياديةٍ لم تكن موضع ترحيبٍ يرجع إلى أن خصومهم كانوا يهودًا لهم تاريخٌ معقدٌ يرتكز على الاضطهاد والذنب الأوروبيين.

سعيد والشتات

يتمثل المكان الأبرز الذي تبوأه إدوارد سعيد في السياق الفلسطيني، كما رأينا أعلاه، في أنه كان شارحًا وممثلاً للمنفى الفلسطيني – لدرجة أنه اكتشف أن الكثير من الفلسطينيين «في الداخل» بعيدون عن هذا المنفى أو حتى أنه غير ذي صلةٍ بحياتهم.

فقد قال لي مرةً في مطلع التسعينيات من القرن الماضي أنه لم يكن يشعر في أي مكانٍ بالغضاضة مثلما شعر بها بين أبناء جلدته. لقد آلمه أن يرى بعض أولئك

القابعين تحت نير الاحتلال الإسرائيلي يتهمونه بالانعزال في الغرب وبالغطرسة الفكرية، وبالتالي بعجزه عن التعاطف مع المصيبة التي حلّت بهم.

ومع ذلك، فقد غمره منتقدوه وأصدقاؤه على حدٍّ سواء، عند وفاته، بالمديح وكالوا له الإعجاب والشكر والامتنان، وأقرّوا له بأنه أحد أعظم أبناء فلسطين. ويستطيع المرء أن يتتبّع «اندماج» سعيد في المجتمع الفلسطيني الأوسع من زيارته إلى إسرائيل في العام ١٩٩٢، حينما عاد إلى القدس للمرة الأولى منذ نعومة أظفاره ليجد منزل أسرته. وقد تجسّد ارتباطه بشعب «الداخل» على نحوٍ حاسمٍ مع التوقيع على اتفاقيات أوسلو في العام ١٩٩٣.

وعلى الرغم من الاعتراضات التي أبداها على هذه الاتفاقيات، تمثلت الآثار الخطيرة التي أفرزتها هذه الاتفاقيات في تعميق الهوّة بين الفلسطينيين القاطنين داخل فلسطين وأولئك المقيمين خارجها. والأسوأ من ذلك أن هذه الاتفاقيات أفضت إلى سحب منظمة التحرير الفلسطينية، التي كانت في جميع الأحوال منظمةً تعمل في الشتات، إلى داخل الأراضي المحتلة – بمعنى إلى «الداخل» – مما أدى إلى تدميرها بصورةٍ عملية. وبذلك، تُرِك الشتات دون قيادة، وتعزّزت هذه الحالة مع وفاة ياسر عرفات في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٤. وفي هذا المعنى، ينبغي النظر إلى اتفاقيات أوسلو على أنها أنجع المحاولات التي بذلتها إسرائيل لتقسيم الفلسطينيين حتى هذا التاريخ.

وبينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تقود النضال لتحرير فلسطين منذ العام ١٩٦٥ وحققت المستحيل – وهو ما تمثل بهذا القدر أو ذاك في توحيد الفلسطينيين المنفيين في العام ١٩٤٨، الذين يشكلون الأغلبية تحت راية واحدة تقريبًا – فإن اتفاقيات أوسلو، التي ركّزت بصورة حصرية على الأراضي التي احتُلّت في العام ١٩٦٧ وعلى سكانها، شطبت ما تم تحقيقه من قبل، التاريخ والشعب، كما لو أنهما كانا دونما أهمية أو تأثير في هذا الشأن.

ويولي الغرب انتباهه، في هذه الآونة وعلى نحو حصري، للأحداث

والاستراتيجيات والسلوك الذي يسلكه الفلسطينيون تحت الاحتلال، كما لو أنه لم يكن هناك مجتمعٌ يقيم في الشتات، ولم تكن هناك قضية غير قضية الاحتلال. ونحن نعلم، بطبيعة الحال، أن عملية التقسيم لم تتوقف عند هذا الحدّ، لأن إسرائيل لم تتوانَ منذ ذلك الحين عن تفتيت المجتمع الفلسطيني في الفترة التي تلت العام ١٩٦٧ إلى كانتوناتٍ ومناطق منفصلة عن بعضها البعض بشكلٍ دائم.

ولكن الشرخ الذين أصاب أهم تجمعين فلسطينيين كان قد وقع بالفعل في العام ١٩٩٣، وألحق الضرر بالقضية الوطنية الفلسطينية. ومما لا شك فيه أن هذا الشرخ كان يصبّ في مصلحة إسرائيل في المعركة الطويلة التي خاضتها مع الحركة القومية الفلسطينية. وفي هذه اللحظة، اضطلع سعيد بدورٍ فريد ومتميز.

فقد ساعد انخراطه مع الفلسطينيين في الداخل، خلال العقد الأخير من حياته، على إعادة إحياء وعي الفلسطينيين بأنفسهم باعتبارهم شعبًا تجمعهم قضيةٌ واحدة. ولم يؤدِّ سعيد هذا الدور من خلال كتاباته وظهوره في المؤتمرات الصحفية فحسب، وإنما من خلال المشاريع التي أطلقها، كمبادرة تعليم الموسيقى للموسيقيين الفلسطينيين الشباب في رام الله والتي أطلقها مع دانيال بارينباوم (Daniel Barenboim). وأفضل كتبه في هذا الشأن، وهو كتاب «المسألة الفلسطينية»، المنشور في العام ١٩٧٩.

وفي السنوات القليلة الأخيرة من حياته، تحوّل إدوارد سعيد إلى كاتب سياسي يكتب أعمدةً منتظمةً في الصحف العربية، ولا سيما صحيفة «الحياة» في لندن و«الأهرام ويكلي» في القاهرة. من السهل أن ننسى أن هذا النشاط برمته لم يظهر إلا في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وهو نشاطٌ ارتبط دونما شكٍّ بتشخيص مرضه الأخير في العام ١٩٩٢.

فقد استعرضت المقالات التي نشرها أكثر من مجرد تعليقٍ على الوضع القائم، بل إنها أمدّت الكثيرين في العالم العربي برؤيةٍ ثاقبةٍ حول منهجية التفكير الأمريكي في الشرق الأوسط. وبذلك، كان الفلسطينيون والكثير من العرب ينتظرون مقالاته

بفارغ الصبر ويقرؤونها بنهم. طرح سعيد، من خلال هذه المقالات، منهجياتٍ جديدةٍ للنظر إلى الأحداث الجارية وساعد في تشكيل الجدل السياسي بشأنها. وتوازت كتاباته مع مشاركته المتزايدة مع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، التي كان يزورها ويُلقي المحاضرات فيها.

وكان هذا العمل الأخير بمثابة أحد أهمّ أعماله التي قدمها للفلسطينيين، حيث أقام به جسرًا للتواصل بين «الداخل» و«الخارج» وأعاد ربط فتات هذا الشعب المشتّت، بعد أن تعمّق الشرخ الذي حدث بينهم عقب العام ١٩٩٣ ولم يَعُد لهم منظمةٌ وطنيةٌ تكرّس نفسها للعمل لصالحهم.

وقد أثار الانتقاد اللاذع الذي وجّهه سعيد للقيادة الفلسطينية حفيظة العديد من المعجبين به وجعل منه شخصًا محبوبًا للمفكرين في إسرائيل والغرب. ولم يُبْدِ سعيد، حتى آخر يوم في سني حياته، خوفًا ولا خشية من شجب غياب الكفاءة والفساد الذي استشرى في أوساط القادة الفلسطينيين، ولا سيما عرفات نفسه. ففي رسالة إلكترونيةٍ خاصةٍ أرسلها إليّ في يوم ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، وذلك قبل وفاته بثلاثة أسابيع، استعرض سعيد وصفًا للأوركسترا العربية–الإسرائيلية التي شكّلها مع دانيال بارينباوم (والتي أسرُد المزيد منها في الفقرة التالية). وبعد أن أبديت تحفّظي حول السياسة التي كان بارينباوم ينتهجها، بعث إليّ سعيد ردّه الآتي:

لست أعرف فنانًا أو مفكرًا عربيًا واحدًا أقدَم على مثل هذا العمل. أعتقد أنه ينبغي لك أن تحتفي بشجاعة هذا الرجل وعبقريته الخارقة وحقيقة أنه، عندما يتعلق الأمر بالسياسة، فهناك مساحة ضئيلة جدًا للاختيار بينه وبيننا. آمل أن ذلك يعيد، بطريقة ما، حماستك التي أخشى أن سنوات طويلة من السياسة اللفظية والمناورات السياسية العقيمة أطفأتها. لقد أنشأنا مؤسسةً في اشبيلية. ومرفق طيّه برنامج كامل لمبادرة التعليم الموسيقي الفلسطيني، التي أشرف عليها أنا ودانيال. وسوف يقدم المعهد الوطني للموسيقى هذا البرنامج بكامله. وفي عالم الأبوات الذين يتحكمّون

بالفلسطينيين فهذه إنجازات مشرقة بالتأكيد.

وقد تُوفي عدوّه اللدود، ياسر عرفات، بسنة واحدة فقط قبل وفاته. وكم هو مثيرٌ للاهتمام أن نتأمّل فيما كان سيقوله سعيد حول هذه الحادثة وحول ما تبعها من انتخاب أبو مازن.

مستقبل فلسطين / إسرائيل

لم يتوهّم إدوارد سعيد في يوم من الأيام أن حلّ الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين لم يكن سوى حلٍّ قائم على المراوغة، بل وكان يبدو له أن التوصل إليه هو من ضرب المستحيل. وبسبب قلقه العارم بشأن التحالف بين الإمبريالية والصهيونية، فهو لم يخطئ أبدًا في قراءة المشروع الصهيوني باعتباره مجرد مشروع كولونيالي سوف يسلك ذات الاتجاه الذي سلكته جميع المشاريع التي سبقته.

وقد حجبت حياته وتجاربه التي خاضها في الولايات المتحدة وشاهد فيها أدلة يومية على تغلغل السيطرة الصهيونية ونفوذها، أي حكم تبسيطيّ كهذا الحكم. ولهذا السبب، لم يفتأ سعيد يكتب عن ضرورة فهم الجانب الآخر وضرورة أن يتعرف جميع العرب على الهولوكوست بكافة تفاصيلها وأن يدرسوا المجتمع الإسرائيلي. كما أبدى امتعاضه من قلة المراكز المخصصة لدراسة الشؤون الإسرائيلية، ولا سيما دراسة أمريكا التي تعتبر أكبر المساندين لإسرائيل، في العالم العربي. فعلى مدى سني حياته، عمل على تشجيع التواصل، بل وحتى إقامة الصداقات مع الإسرائيليين الذين يشاطرونه الفكر والتوجه.

وفي سنواته الأخيرة شارك العديد من الإسرائيليين البارزين في أعمالهم وأجرى مقابلات مع صحيفة «هآرتس» وبات معروفًا في أوساط المفكرين الإسرائيليين. وتعتبر شراكته مع عازف البيانو دانيال بارينباوم أحد الشواهد المثمرة التي تُوِّجت بإطلاق مشروع موسيقي مشترك، هو اوركسترا الديوان الغربي الشرقي (West-Eastern Divan Workshop and Orchestra)، الذي يشترك في عضويتها شبّان عرب ويهود.

وقد حضرتُ أول حفلة، حظيَت باستقبالٍ بهيج، لهذه الأوركسترا في لندن في شهر آب/أغسطس ٢٠٠٣. ومع ذلك، فلم يكن هذا المشروع موضع ترحيب الجميع، كما وجد البعض منّا تنافرًا مزعجًا بين الاحتفال بـ»الصداقة» بين العرب والإسرائيليين في لندن في ذات الوقت الذي كانت إسرائيل تنفذ فيه هجومًا بلا رحمة ولا شفقة على أبناء الشعب الفلسطيني في فلسطين.

ومع ذلك، أظهر هذا النوع من المبادرات الاتجاه الذي كان من المرجَّح أن إدوارد سعيد سيسلكه لو قُدِّر له أن يعيش أطول مما عاشه. لقد كان حلّ الدولة الواحدة الذي تبناه يستند إلى فهمٍ مؤداه أن لا الشعب الفلسطيني ولا الشعب الإسرائيلي يستطيع أن يخفي الواحدُ منهما الآخر ويطمسه، وذلك بسبب تاريخ كل شعبٍ منهما. وكان يؤمن بأن العلاقات بين الشعوب يجب أن تتخطى الحدود والتفرد العرقي والاختلاف، وأن دولةً جديدةً تقام على أساسٍ من التسامح والتناغم والتعايش المشترك هي في نهاية المطاف هدفٌ أفضل يستحقّ النضال من أجله أكثر من دولة تقوم على أساس الفصل والغضب والكراهية والظلم.

كتب إدوارد سعيد في العام ١٩٩٩: «لعلّ حلمنا في إقامة دولة فلسطينية قبل ٢٠ عامًا كان يمكن تحقيقه حينئذٍ، ولكننا بتنا اليوم لا نملك القدرة العسكرية ولا السياسية ولا الأخلاقية على إقامة دولة مستقلة حقيقية... وعلى هذا المنوال، فلا يمكن تحقيق الأحلام الإسرائيلية كذلك... لذلك، يتمثل المنطق السياسي الوحيد المقبول لدى الفلسطينيين في نقل نضالنا من مستوى المفاوضات التي تتم على مستويات القيادة المتقدمة إلى مستوى الواقع العملي على الأرض». كما دعا إلى التعايش والتحالف بين الفلسطينيين والإسرائيليين ممن يتشاركون في ذات التوجهات الفكرية بغية تحقيق هذه الغاية. «إنني أكتب لكي يسمعني العرب الآخرون والإسرائيليون الآخرون الذين تستطيع رؤيتهم أن تتخطى وجهات النظر المقفرة حول ما يمكن أن تؤتيه التفرقة والفصل.»[١١]

وفي مقالة لاحقة استوحاها من زيارته إلى جنوب أفريقيا، التي تغلّب المؤتمر الوطني الأفريقي فيها على الفصل الذي فرضه نظام الأبارتهايد بين الشعوب، أعاد

إدوارد سعيد التأكيد على إيمانه بـ»الإنسانية المشتركة« للإسرائيليين والفلسطينيين: «لم يعُد من الممكن أن يكون النجاح من نصيب نظام الفصل في أرض بالغة الصغر [كما هو حال إسرائيل / فلسطين] أكثر مما كان من نصيب نظام الأبارتهايد.»

ولذلك، كانت إجابته تتمثل في «وجود شعبين على أرضٍ واحدة، أو تحقيق المساواة للجميع أو التأكيد على إنسانيةٍ مشتركةٍ في دولة ثنائية القومية.»[١٢] وقد جاءت الدعوة إلى حل الدولة الواحدة متأخرةً في حياة إدوارد سعيد المهنية. فعلى مدى سنوات كثيرة، كان يساند فكرة الدولتين بصورة إيجابية وسلبية. ومع ذلك، كانت الرؤية التي ارتآها لهذا الحل البديل حتى آخر أيام حياته على ذات القدر من الإقناع والإلهام كما لو كان يدعو إليها وينافح عنها طوال عمره.

وعندما يستطلع المرء ما تبقى من فلسطين في هذه الأيام، والقوة المذهلة التي تفرضها إسرائيل على الولايات المتحدة، والأفول النهائي الذي بات العالم العربي ينحدر إليه وتواطؤ المجتمع الدولي غير الأخلاقيّ في هذا الوضع، فهل يمكن أن أحدًا ما يزال يؤمن بحل الدولتين؟ ألا نستطيع أن نرى الآن، كما رأى بعضنا منذ العام ١٩٤٨، أن دولة إسرائيلية تقام على أساس القوة الساحقة واضطهاد الآخرين لا تملك مستقبلاً مستقرًا؟

أليس المخرج الإنساني الممكن والوحيد من هذا الكابوس يكمن في إقامة دولةٍ مشتركةٍ يستطيع فيها أولئك الذين يعرفون أنها وطنهم تقاسمها على قدم المساواة وعلى أساسٍ من التفاهم والوئام فيما بينهم؟

الهوامش

١ Imre Salusinszky, ed., Criticism in Society (London: Routledge, 1987), 127–28.

٢ Abdirahman Hussein, Edward Said: Criticism and Society (London: Verso, 2002), 2.

٣ انظر مثلاً:

Ella Shohat, «Antinomies of Exile: Said at the Frontiers of National Narrations,» in Edward Said: A Critical Reader, ed. Michael Sprinker (Oxford: Blackwell, 1993), 121–43 in Edward Said: A Critical Reader, ed. Michael Sprinker (Oxford: Blackwell, 1993), 121–43.

٤ Edward W. Said, After the Last Sky: Palestinian Lives, photographs by Jean Mohr (London: Faber and Faber, 1986), 20.

٥ المصدر السابق.

٦ Edward W. Said, The Question of Palestine (London: Vintage, 1992), 115.

٧ Jonathan Raban, «Emasculating Arabia,» Guardian, 13 May 2004.

٨ Said, The Question of Palestine, 57.

٩ المصدر السابق، ص. ٥٦–٥٧.

١٠ من خطاب ألقاه سعيد في مسرح بلومزبيري (Bloomsbury Theatre)، لندن، أيلول / سبتمبر ١٩٩٨.

١١ Edward W. Said, «What Can Separation Mean?» Al-Ahram Weekly, 11–17 November 1999.

١٢ Edward W. Said, «The Only Alternative,» Al-Ahram Weekly, 1–7 March 2001.

وانظر أيضًا:

Said, «The One-State Solution,» New York Times, 10 January 1999.